

الفكرة في الفلسفة البراكمانية

"بيرس أنموذجا"

م.م. نزار نجيب حميد

قسم الفلسفة/ كلية الآداب

المستخلص:

تعد الدوافع والأسباب التي عملت على تحقيق الشهرة للفلسفة البراكمانية - ليست في أمريكا فحسب بل العالم - هي كونها حركة فلسفية ساهمت في بناء منهج علمي شامل وأنها قامت بدراسة واقع الفلسفة ومشكلاتها من منظور جديد اعتمد تجريبية غير نمطية.

وبيرس احد وابرز الفلاسفة البركمانيين، الذي يعود الفضل له في وضع اللبانات الأولى في بناء البراكمانية- فلسفة ومنهج علمي - كما أرادها، وقاعدة أساس ليؤسس عليها فلاسفة وعلماء من بعده، ممن آمن بآرائه ونظرياته التي وظفها فيها بعد ما انعكست في المعرفة والمنطق والميتافيزيقا، فكان لها ثقلها في الفكر الغربي المعاصر.

المقدمة:

ان الباحثة ليرون فروقا" كبيرة بين ما أراده بيرس من بركمانيته، وما سار عليه الآخرون في تطوير هذه الفلسفة، الأمر الذي أدى إلى خيبة أمل بيرس في صديقه الحميم وليم جيمس احد رواد الفلسفة البراكمانية، بعدما أقحم الأخير هذه الفلسفة في مجال الدين والأخلاق والميتافيزيقا وعلم النفس. ولعل مفهوم الفكرة لدى بيرس ابرز ما نراه في نظرياته التي ساهمت في تقديم الحلول العلمية في مشكلة المعرفة، خصوصا" بعد أن جعل بيرس منها - أي الفكرة - فرضا" من الفروض العلمية وثبت لنا قاعدة علمية تدعو إلى ربط أفكارنا الناجحة بالأثار العملية الناتجة عن سلوكنا العملي، أصبحت فيما بعد نظرية في المعنى، كانت هي حصيلة جهده الخلاق في الاستمولوجيا المعاصرة.

وعلى هذا الأساس جاءت محاولته هذه إصرارا" منه على تجاوز المرحلة الكلاسيكية التي تبنتها الفلسفات السابقة في شطر المعرفة إلى جانبين (الذاتي - الموضوعي) فكانت نظرياته رد فعل مباشر على رفض الثنائية التي طالما شغلت عقول الفلاسفة وأرهقت أذهانهم لذا أخذ بحثنا هذا أهم محاور هذه المشكلة، فكان على ثلاثة محاور، قمنا بتسليط الضوء في المحور الأول على مشكلة المعرفة وعلاقة الفكرة فيها، كما واصلنا في المحور الثاني الحديث عن نظرية المعنى، التي شكلت القاعدة الرئيسة في عملية المعرفة، وانتهينا إلى المحور الثالث الذي ضم رؤية بيرس الجديدة عن الكون وقوانين الطبيعة فصارت نظرية أصيلة في الميتافيزيقا.

وبشكل عام نقول أن هذا الفيلسوف العالم الذي لم يحظَ بفرصته الحقيقية في حياته، رمزا" من رموز فلاسفة العلم المعاصرين.

المحور الأول: الفكرة ومشكلة المعرفة:

مرت مشكلة المعرفة في السابق بمراحل وتغيرات واسعة ومختلفة، تبعا" لاختلاف الزمن والظروف التي رافقت المناخ الفكري، الذي حدد مصير الإنسان ووجهه نحو المستقبل، مخلفا" وراءه صروحا" شامخة في الفكر الفلسفي وثقافات ومذاهب لطالما شهد لها التاريخ بشكل واضح، عندما سجل منجزاتها العظيمة، لتكون تراثا" حقيقيا" خالسا" من صنيع الإنسان.

ولعل مشكلة المعرفة كانت وما زالت هي أولى المشاكل الرئيسة التي اعترضت فكر الفيلسوف، ذلك ان المعرفة في حقيقة الأمر تعد بمثابة الباب الذي يدخل منه المرء إلى العالم الكبير، وهي كذلك النافذة التي يطل منها على شرفتها عقل الفيلسوف العالم المتأمل، مجتهدا" للوصول إلى معرفة الحقيقة. وهذا ما كان مثارا" للاختلاف والصراع الفكري بين جمهرة الفلاسفة على اختلاف آرائهم واتجاهاتهم الفلسفية متسائلين عن السبيل إلى معرفة الحقيقة، فكنا قد صرنا في مفترق أحد الطريقين، أما ان نكون عقليين أو نكون تجريبيين ؟!

لقد وصل هذا الاختلاف المنهجي ذروته في منتصف القرن التاسع عشر برغم المحاولات التي قام بها كبار الفلاسفة المحدثين لاحتدام هذه المشكلة، وما فلسفة هجيل إلا محاولة جادة لرفع الحواجز الوهمية بين الإنسان وعالمه، لكننا وجدنا ان هذه الفلسفة لم ترق لدى كثير من الفلاسفة المعاصرين، بل جعلوا منها - أي فلسفة ميجل - ميدانا للنقد والرفض والإنكار. وقد تصدت الفلسفة البراكمتية للمثالية الهيجلية، التي لم تبين أسسها المعرفية على ارض الواقع، بل ذهبت وغالت غلوا" كبيرا" في عالم المثال، الأمر الذي دعا ببيرس ان يعيد بناء المعرفة من جديد بناءا" علميا" صحيحا" مدعما" منهجه بالتجربة والواقع، وتبعنا" لهذا الأمر تعد الفكرة عند بيرس خطوة رئيسية من خطوات المنهج البراكمتي، ومحاولة جديدة في رصد نظرية أصيلة في المعرفة. وهذا ما يقودنا إلى التساؤل عن مفهوم الفكرة وطبيعتها؟

والفكرة عند عامة الناس هي فكرة ذات مستوى بسيط، لاقتنائها بالموضوعات الساذجة التي تدور في عقولهم، وبإمكان الرجل العادي ان يخبرنا عن امتلاكه فكرة معينة عن كذا أو كذا، لكنها ليست الفكرة التي قصدها الفلاسفة أو حاولوا تحديد معناها من قبل.

فالفلاسفة المثاليون يقولون " أن الفكرة هي تصور عقلي يشترط ان تكون متسقة مع بقية التصورات العقلية ولا شيء غير ذاك ". أي أنه لا يطلب من الفكرة في هذه الحالة ان تكون مقابلة لشيء في الطبيعة الخارجية، وعندئذ تكون مجموعة الأفكار كالبناء الرياضي البحت، يقام في العقل خالياً في التناقض الداخلي بين أجزائه لكنه لا يتوقف على كونه مطابقاً لعالم خارجي " (١).

لقد قدم لنا العقلائي الفرنسي ديكارت ١٥٩٦ - ١٦٥٠ نمط من الأفكار سماها بالأفكار (الفطرية) (٢) وهذه الأفكار ليست مكتسبة من تجربة وإنما نحن نولد بها كاستعدادات فطرية في النفس وان الله هو الذي أودعها فينا كعلامة للصانع في صنعه.

أما الفلاسفة الواقعيون لا يرضون بهذه النتائج، ويقولون ان الفكرة - مهما تكن - لابد ان تكون مطابقة لشيء ما موجود في عالم الطبيعة الخارجية، سواء كانت المطابقة تامة كصورة الشيء على صفحة المرآة، أو كانت مطابقة يدخل فيها شيء من التباين بين الطرفين، كأن نقول مثلاً " أن ذوبان الثلج مطابق لحرارة موجودة خارج قطعة الثلج المذابة. (٣)

وأما البركماتيون فيلفتون الأنظار إلى هذا الأمر لفئة جديدة، إذ يقولون ان الذي يحدد حقيقة الفكرة ليس هو مقوماتها، بل يحددها ما تستطيع ان تفعله في دنيا الأشياء. فالفكرة أداة تطلب لما تؤديه، وليست هي كالصورة الفنية ننظر إليها في ذاتها. الفكرة كمفتاح الباب مثلاً، ليس المهم فيه ان يكون مصنوعاً من حديد أو خشب بل المهم فيه هو انه يفتح الباب المغلق، فإذا لم يفتح به باب لم يكن مفتاحاً مهما اتخذ لنفسه من صور المفاتيح. عند البركماتيين، الذين هم على مذهب بيرس، ان الفكرة خطة للعمل وقيمتها في نجاح تلك الخطة، هي الخريطة التي قيمتها كلها مرهونة لا بجمال ألوانها وحسن شكلها وأحكام رسمها - بل بكونها أداة صالحة في يد المسافر يعرف بها أين النهر وأين الجبل. وما أكثر الناس الذين يحسبون ان في رؤوسهم أفكاراً حتى إذا ما سألتهم: وماذا تستطيع تلك الأفكار ان تؤدي في دنيا العمل؟ لم يجدوا جواباً، لأنها ليست في الحقيقة أفكاراً بالمعنى الذي يحدده البركماتيون. بل ما أكثر الفلاسفة اللذين يتحدثون عما يسمونه أفكاراً وهي في الحقيقة لغو لا ينفع ولا يشفع، وإذن فمقياسنا هو: ماذا عساي ان اصنع بهذه الفكرة أو بتلك، وبهذا الذي استطيع ان اصنعه يتحدد معنى الفكرة. (٤)

ونلاحظ هنا وبشكل واضح مدى تأثير الفلسفة البراكامتية بالتجريبية وخصوصاً " التجريبية الانكليزية. ويمكننا توضيح المنهجية التجريبية عند بيرس من خلال وقوفنا على بعض المناهل العلمية التي استقى بيرس منها منهجه أثناء دراسته الجامعية في هارفارد، بعد تخرجه منها عام ١٨٥٩.

فقد تأثر في بداية حياته الفلسفية بكانط، وظل عاكفاً على دراسة مؤلفاته النقدية وخاصة كتاب " نقد العقل الخالص فترة تزيد على أربعة أعوام وذلك لاهتمامه بالنقد بصفة عامة، ونقد العلوم بصفة خاصة. ثم تحول منذ عام ١٨٦٨ عن الفلسفة النقدية الكانطية، إلى الأخذ بنوع من الواقعية المتمثلة في فلسفة الفهم المشترك عند توماس ريد^(٥) ثم انتهى بعد ذلك إلى موقف رافض للاتجاه المثالي، وخاصة المثالية الهيجلية التي أصبح يرفضها في جملتها^(٦). وفي سطور موثقة كتبها بيرس في مقال عن نفسه يبين لنا فيها حقيقة نشأت بيرس العلمية، فيقول " . انه في بداية تفكيره وطيلة حياته كان منصرفاً إلى التفكير في مناهج البحث..... وانه قد انفق عشرة سنوات سابقة تحت التدريب في معمل كيميائي..... وهو على دراية جيدة في الفيزياء والكيمياء، والتطور العلمي الذي شهده على يد العلماء، بل انه قد أضاف إلى العلم إضافات جديدة، وخصوصاً في الرياضيات ونظرية الجاذبية، وعلم البصريات والكيمياء والفلك وغيرها. ولذا فأنتني مشبع من قمة الرأس إلى أخمص القدم بروح العلوم الفيزيائية...." (٧)

ان هذا البناء العلمي الرصين، قاد بيرس إلى تدعيم دراساته وآراءه الفلسفية الأمر الذي قاده إلى تأسيس الفلسفة البراكمانية أو العملية عام ١٨٧٠. وكانت من البوادر الأولى التي ساعدت على نشأة الفلسفة البراكمانية هي في " النادي الميتافيزيقي " بين عامي ١٨٧٢، ١٨٧٤، وهو النادي الذي كان يمثل كل من بيرس ووليم جيمس وهولمز وجوزيف وآرثر وجون جرين وتشو نسي رايت وآخرين.^(٨) وكان بيرس ووليم جيمس ورأيت من رجال العلم العاملين على تحقيق الاتجاه التجريبي الانكليزي في الفلسفة، في مقابل الاتجاه الميتافيزيقي المثالي الذي كان متمثلاً لدى اغلب أعضاء النادي، حيث يبين بيرس هنا أن نسق تفكيره جاء على النمط البريطاني، وان أفكاره اكتسبت النبرة الانكليزية.^(٩) وهذا الإصرار المنهجي قاده إلى إعلان إعجابه عن النتائج التي كانت الفلسفة الانكليزية قد وصلت إليها بمنهجها والتي من بينها نظرية " ترابط الأفكار " التي يعدها بيرس أهم نتيجة وصلت إليها الفلسفة في عصر ما قبل العلم.^(١٠) وفي هذه الأثناء قدم بيرس بحثاً قيماً جاء بعنوان " كيف نوضح أفكارنا " How To Make our ideas clear، عام ١٨٧٨.

استمر بيرس في تأكيده على بناء فلسفة علمية، تتصف بالدقة البالغة ورصانة المنهج، وابتعاده عن تأملات الفلسفة المثالية المليئة بالايحاءات الزائفة التي لا تعير للواقع وزناً. وقد انصب هذا على دراساته الفلسفية في المنطق ونظرية المعرفة ومناهج البحث، بل انه ذهب أبعد من ذلك في رغبته ان تخضع هذه الدراسات إلى المعامل المختبرية حالها كحال العلوم التطبيقية. آذن أراد بيرس من تحقيق المنهج العلمي في الفلسفة، وقد رأى ان يطبقه على نظرية المعرفة بالدرجة الأولى، فذهب إلى

أن التفكير الإنساني يجب ان يسير على أساس نفسه الذي يسير وفقاً له في معامل الطبيعة.^(١١) ولما كانت الفكرة في العمل لا يتم قبولها إلا إذا كانت لها نتائج عملية يمكن مشاهدتها لكل إنسان، فكذا المعرفة - كائنة ما كانت - لا تستحق هذا الاسم إلا إذا كانت لها نتائج عملية يمكن لكل إنسان ان يشاهدها. ^(١٢)

لقد تمكن بيرس من تحديد المشكلة المركزية لنظرية المعرفة لدى الفلاسفة المحدثين بشكل خاص، لكن التناقض الذي وقع فيه الفلاسفة، بين ما أسسه أرسطو وما دعا إليه كانط، دفعت بيرس إلى احتواء المشكلة وحسمها من خلال تقديمه حله الخاصة لها. والنقطة الجوهرية لمشكلة المعرفة هي في التوفيق بين الطبيعة الذاتية للفكر، وبين دعوانا بأننا نعرف ما هو خارج أفكارنا، وهذه المسألة لم تكن مشكلة بالنسبة لأرسطو، إذ اعتبر أن العقل أنما يكتشف نظاماً ما كان من قبل موجوداً في الواقع،^(١٣) حتى جاء كانط ليعكس المسألة من خلال زعمه ان النظام في معرفتنا يأتي من العقل وحده.^(١٤)

بدأ بيرس بالقول بأننا على وعي بكوننا نفصل في خبرتنا بالواقع مباشرة، ويتكون الواقع من الأشياء الكائنة سواء فكرنا فيها أو لم نفكر، فضلاً عن ذلك أننا إذا أردنا اجتناب المفاجئات غير السارة فانه يجب علينا ان نسعى لان نكيف سلوكنا مع هذه الأشياء، والى هذا يتفق بيرس مع أرسطو. ولكن من الواضح أننا نتعامل مع الأشياء تبعاً لما لدينا عنها من أفكار، بيد أن أفكارنا ان هي إلا تكوينات (عقلية) كونها بعد اختيار عناصرها، فهي مؤسسة على خبرة جزئية بالأشياء، هذه الخبرة تكون مصبوغة بتاريخنا وظروفنا ومرامينا والقول بطبيعة المعرفة الاختيارية أدى ببيرس إلى الاتفاق مع كانط على أن العقل يشيد - بمقدار ما - النظام في المعرفة، ثم اخذ بيرس بعد ذلك في بيان أننا لو أمعنا النظر في حقيقة " الفكرة " أو " المدرك العقلي " لاستطعنا التوفيق بين ما هو صحيح من بين التفسيرات المتعارضة عند كل من أرسطو وكانط.^(١٥)

وخلاصة القول استطاع بيرس أن يرد المعرفة إلى ما يترتب عليها من نتائج عملية، الأمر الذي جعله يصوغ فلسفته كلها في شكل المبدأ التالي والذي يعرف بمبدأ بيرس " أدخل في حسابك دائماً أي نوع من الآثار التي يمكن ان تكون موضع الملاحظة الفعلية العملية، حينما تدرك أية فكرة أو أي تصور."^(١٦) والملاحظ أن بيرس يكثر الأمثلة في هذا الصدد فنراه يعزز بها مبدأه في تأسيس المعرفة العلمية، مضمناً فيها منهجيته التجريبية اللاتقليدية فيقول " أن فكرتنا عن النبيذ لا تعني شيئاً إلا ما له آثار معينة على حواسنا مباشرة كانت أو غير مباشرة".^(١٧) ويكمل بيرس رأيه قائلاً: "ان فكرتنا عن أي شيء هي فكرتنا عن آثاره المحسوسة".^(١٨) أن هذا القول يعد أداة للتمييز بين المعرفة

الصحيحة والمعرفة الزائفة، فالمعرفة الصحيحة، أي الفكرة الصحيحة عن موضوع ما، ومن هنا تكون فكرتنا عن الموضوع بمثابة جماع لأفكارنا عن نتائجه، كما يستهدف بيرس بقواعده المعرفية فضح الصيغ الجوفاء وتمييزها عن الأفكار الغنية بالمضمون.^(١٩) فضلا عن معيار الحقيقة الرئيسي الذي يقتضي بموجبه العمل المنتج لا الحكم العقلي، وأن العمل مبدأ مطلق كما يبتغيه بيرس والبركماتيين من بعده، بحيث يلزم من ذلك انه حر كل الحرية وأن لا شيء يعترضه، سواء " العمل المادي والخلقي والعقلي أو التصور، فليزِم أن العالم مرِن نستطيع التأثير فيه وتشكيله، وان تصوراتنا فروض أو وسائل لهذا التأثير والتشكيل،^(٢٠) بشرط ان تتمتع هذه التصورات أو الأفكار بما يؤهلها أن تكون فروضا " علمية حقيقية مماثلة لما هو عليه في العلم الحديث، ويأتي هنا المنهج البراكمتي بمثابة الوسيلة لتوضيح الأفكار والتصورات من خلال وضع التعريفات (التفسيرات) المناسبة لها، أو كما أرادها بيرس أن تكون نظرية في المعنى، وهذا ما سوف نتناوله في المحور التالي.

المحور الثاني: نظرية المعنى:

انتهينا في المحور الأول من خلال حديثنا عن مشكلة المعرفة والفكرة في أن بيرس قد وضعنا إزاء الموضوع بشكل مباشر، وذلك مقابل حصولنا عن مجموعة الآثار الحسية الناتجة من ذلك الشيء، أي أن فكرتنا عن أي شيء هي فكرتنا عن أثاره الحسية. ويقول انك تكون قد خدعت نفسك اذا توهمت أنك قادر على الوصول إلى نوع آخر من الخصائص، ذلك لان وظيفة الفكر للإنساني هي الاهتمام بالأفكار التي تفسر تفسيراً "حسياً".^(٢١)

لقد كان من مؤيدي هذا المبدأ تشو نسي رأيت أحد أعضاء النادي الميتافيزيقي الذي كان بيرس عضواً فيه، حينما قال " وراء الحقائق الظاهرية المجردة لا يوجد أي شيء ".^(٢٢) أن هذا المبدأ يؤكد لنا مدى تأثير الفلسفة البراكمتية بفلسفة كانط، عندما تشير -أي فلسفة كانط- إلى أن عالم المعرفة العلمية المقتضي أفكارنا عن الأشياء في إطار المكان والزمان والتي تبدو لنا بشكل واضح هي ما تسمى بعالم " الظواهر " والتي تجعلنا بالمقابل نرفض التفكير بان هناك " شيء في ذاته " أو ما وراء الشيء " الجواهر "، وهذا ما دعا بكانط أن يقصي التفكير بالقضايا الميتافيزيقية عن التفكير العلمي. ولعل بيرس قد استطاع أن يسير بنفس الخطى من خلال منهجه العلمي وتجربيته الجديدة. لكننا نراه في جوانب كثيرة من فلسفته قد غالى في صياغة آراءه المتعلقة بأفكارنا عن الأشياء المادية، فقد ظن للوهلة الأولى أنها لا تترك مكاناً " لأية فكرة من قبيل الخير الأخلاقي، فمثل هذه الفكرة وهي فكرة مهمتها التنظيم - لا تؤدي إلى تحقيق حسي مباشر وإنما هي تحكم سلوكنا في معاملتنا مع

الأشخاص والأشياء.^(٢٣) وقد استغل هذه الفكرة البركماتيون وخصوصا وليم جيمس بأنها دلالة على أدراك الظواهر، في حين أن بيرس أراد أن يتحاشى كل ما عساه أن يخلط تلك الآراء بمذهب الظواهر.

وفي إشارة منه تدعو وليم جيمس إلى تجاوز التجريبية التقليدية فيعلق بأن أيا " ما كان الاهتمام أو التركيز الذي يضعه التجريبي على ما يعرض على الحواس فينبغي ألا يغفل ترابطات الأشياء وصلاتها فيما بينها، والأهم شأن عنصر البداهة في الحكم وسمو موضوع المعرفة بما يفوق العقل.^(٢٤) لكن بشكل عام تحدد دراسة نظرية المعنى التي بدأ بيرس بطرحها أثناء نشره مقالين بعنوان، الأول تثبيت الاعتقاد The Fixation of Belief ١٨٧٧، الثاني كيف نوضح أفكارنا How To make our ideas clear ١٨٧٨، وهما المقالان اللذان حددا أول ظهور لفلسفة البراكتيزم في شكلها المطبوع والمنشور، قلنا أنها تحددت (نظرية المعنى) من وجهة النظر التجريبية، فقد رأى بيرس أن أية فكرة أنما ترتبط دائما" بالانطباعات الحسية التي نتزود بها عن الأشياء التي هي موضوعات الإدراك، وأننا لو اكتفينا بالعقل وحده دون الحس والمعرفة الحسية لما استطعنا أن نتوصل إلى المعرفة الصحيحة.^(٢٥) وفي هذا يقول بيرس في معرض نقده للعقليين " أنهم لم يفتنوا إلى آلية العقل التي لا تستطيع إلا أن تحول المعرفة وتغيرها، لكنها لا يمكن أن تولدها ما لم يكن قد تم تزويد العقل بوقائع الملاحظة الحسية ".^(٢٦) أن هذا الرأي يكاد يكون مماثلا لما هو عند التجريبيين الحسيين، الذين اعتمدوا الوقائع الخارجية المستقلة، ومن ثم انتقالها من قبل الحواس لكي تودع في العقل فتتحول إلى أفكار بسيطة، فهذه الأفكار لا تحمل سوى شيء واحد هو انطباعاتها الحسية ويؤكد بيرس هذا بقوله:- " أن ما أرمي إلى توضيحه هو أنه من المستحيل بالنسبة لأية فكرة موجودة في عقولنا أن تكون متعلقة بأي شيء ما عدا الآثار المحسوسة التي ندركها فيه ".^(٢٧)

وهذا التحديد المنهجي دعابة أن يبين أهمية الخصائص الحسية المرتبطة بشيء ما، أو ما كونه تفسير أو تصورا" عن هذا الشيء ، فيوضح قائلا" ان الوصول إلى تلك الخصائص يساوي إجراءنا لعملية معينة نقوم بها، ونصل منها إلى نتائج، ويتألف معنى هذا التصور من مجموعة تلك النتائج. ويقول في ذلك أن المعيار البرجماتي هو أن وصفك لشيء ما يساوي قولك أن عملية معينة - لو أجريتها - يجب أن تتبعها نتيجة لها وصف عام محدد وقصد بأجراء العملية وسيلة إلى أدراك الخصائص الحسية. أن التعريف في المعنى يجب أن يكون عاما" وهذا معنى وضوحه، وقد يثير بعض الشك قولنا أن الوضوح والعمومية شيء واحد ولكن يزول الشك حين ندرك أن بيرس لا يعني

بالعمومية في اللفظ عدم التحديد، وإنما يعني أن العملية الإجرائية لكي تكون واضحة ينبغي أن تكون ممكنة لكل إنسان.^(٢٨)

الأ أن بيرس لا يقف عند هذه البداية التجريبية، بل يتجاوزها فيذهب إلى أن معنى الكلمة أو العبارة، لا يتحدد بناء على ترجمتها بالألفاظ أخرى، أو عن طريق ذكر مرادفاتها، والأ ظللنا ندور في كلمات، ونحن نتوهم أننا نكون قد حددنا معنى الكلمة المراد تعريفها، كما لا يكون توضيح معنى اللفظ أو العبارة عن طريق دلالتها المباشرة في عالم الأشياء، وألا نكون قد ضيقنا من مجال المعاني إلى حد كبير. لذا يرى بيرس أن معنى اللفظ أو العبارة هو الذي يوجه الإنسان أو يرشده إلى نوع من السلوك أو الفعل، أي أن المعنى في هذه الحالة ليس الأ مجموعة ما يمكن للإنسان أن يودية من سلوك أو أفعال مسترشداً "بالكلمة أو مهتدياً" بالعبارة، ومن ثم فإن ما لا يؤدي إلى سلوك معين أو عمل ناجح في الحياة الخارجية، يصبح بلا معنى ويعبر بيرس عن ذلك بقوله " أن معنى الكلمة أو العبارة، إنما يقع بأسره في حدود دلالتها على ما يمكن أن يؤدي في الحياة السلوكية بنجاح ".^(٢٩) ونرى بيرس يضرب أمثلة من عالم الكيمياء يقيسها على تحديد معاني الألفاظ، فيذهب في التعريف العادي لعنصر الليثيوم هو ما وزنه الذري يساوي ٧ تقريباً، ولكن يعرفه الفيلسوف البرجماتي على النحو التالي:- إذا بحثت بين الفلزات على فلز شفاف نوعاً ما، ينفذ منه الضوء، ذو شكل رمادي أو أبيض، صلب، يلمع وله بريق لا يقبل الذوبان، تعطى القطعة منه لونا "قرمزياً" لدخان غير مشتعل ويمكن أن يذوب نوعاً ما في حامض المورياتيك إذا مزج مزجاً جيداً" بالجير ثم انصهر، وإذا تبخر هذا المحلول ووضع الراسب في حامض الكبريتيك ونقى حالاً يمكن ان يتحول إلى كالوريد الليثيوم، اذن لقد وصلت إلى تعريف الليثيوم.^(٣٠) هذه هي النظرية الجديدة في تحديد معاني الألفاظ، وواضح من خلال المثال الكيميائي على ان النظرية تشير إلى أن المعنى لا يتألف الأ من مجموعة الآثار التي تنجم عنه في محيط الخبرة الحسية.

وذهب بيرس إلى ان توضيح معنى الفكرة يكون بالقياس إلى آثارها العملية في حياة الإنسان، واعتبر الألفاظ التي تتكون منها الكلمات والعبارات المتمثلة في هذه الأفكار هي خطط للعمل^(٣١) Plans of action، وهذا ما جعل التمييز واضحاً بين برجماتية بيرس عن برجماتية وليم جيمس، فذهب الأول في كون معنى مفهوم ما يفسر بالنسبة لسلوك وليس بالنسبة للإحساس فقط، وأيضاً في كونه بالنسبة للتعميم - أي مفهوم الفكرة بالشكل العام - وليس على الجانب الجزئي فقط، زمن هذا نستطيع أن نستخلص بأن تفسير بيرس للفكرة جاء مقياساً "للأداء والضبط".^(٣٢)

أن هذا السعي الجاد الذي ابتغاه بيرس في بناء فلسفته، قاده إلى أن الفكرة يكون لها معنى من خلال أي سلوك عملي ممكن تستطيع الفكرة أن تنظمه أو تؤدي إليه، وليس يلزم لفكرة أن تؤدي بالضرورة إلى تحقيق حسي مباشر وإنما يكفي أن تعطي لسلوكنا معنى، مثال ذلك فكرة الصدق باعتباره معياراً يوضع نصب الفكر، فعلى الرغم من أنها فكرة ليس لها بذاتها مضمون حسي مباشر ألا أنها تستحثنا على أن نظل نضيف إلى معلوماتنا. ويواصل بيرس في نظريته بقوله أن كل فكرة أنما تخلق مكاناً " لسلوك منظم ذي صلة بما تعبر عنه تلك الفكرة، ومن ثم تفسر كل فكرة في النهاية على أنها " عادة " habite ، وهذه العادات باعتبارها تفسيرات لأفكارنا هي " المرشحات إلى العمل " وأفكارنا أنما تجد الحياة والتعبير المتسق في طرائق سلوكنا المعتادة. (٣٣) ومن هذا المنطلق شرح بيرس ببناء نظرية في الاعتقاد أسهمت في تحديد الأفكار التي نكونها عن الأشياء بعد إسقاطها من عالم الإحساس، فليست معتقداتنا في نظره سوى قواعد لعمل أو السلوك، وليس التفكير بأكمله سوى مرحلة أولى في سبيل تكوين عادات فعلية. (٣٤)

ويشير بيرس إلى أننا بعد مرحلة سيطرتنا على معتقداتنا التي هي في الحقيقة قواعد للعمل، يمكننا أن نبدأ في تحديد السلوك الذي تصلح تلك المعتقدات لتوليد، هذا السلوك وحده هو الذي نرى فيه معنى هذه المعتقدات ومغزاها والحقيقة الملموسة التي ترسب في جذور كل تفكير نقوم به، أيا كان حظه من الوثاقة والمتانة، هو انه ليس هنالك جانب من جوانب هذا التفكير إلا ويمثل ناحية من نواحي العمل، ولكي نصل إلى الوضوح الكامل في تفكيرنا عن موضوع ما ينبغي أن نرى ما عسى أن ينطوي عليه الموضوع الذي أماننا من نتائج عملية أي أحاساس نتوقعها منه، وأي إرجاع يجب أن نتأهب له. أن تصورنا لهذه الآثار سواء أكانت قريبة مباشرة أو بعيدة نائية، هذا التصور عينه هو تصور لموضوع، بقدر ما يكون لهذا التصور مغزى وضعي. (٣٥) والفكرة بهذا المعنى تدل على المفهوم الذي يكمن في خلعه مظهراً "معيناً" على موقف مثير بذلك عملاً "معيناً" من نوع خاص. (٣٦) لقد استطاع البركمانيون من استغلال مبدأ الاعتقاد وما يترتب عليه من سلوك عملي نفعي في بناء نظريات جديدة أسهمت في تطوير مناهج علم النفس، وكان هذا واضحاً لدى وليم جيمس، كما كان واضحاً "أيضاً" لدى بيرس الذي عالج المشكلة الابستمولوجية بطريقة علمية. فذهب إلى ان معنى الفكرة أو الفرض * - كما يرتأى أن يطلق عليها - يكمن في السلوك الذي يتمخض عنه ذلك المعنى. فالفرض الذي يمكن تحقيقه فرض صحيح، وعندما تقودنا أفكارنا إلى سلوك لا هو بالذي نؤخذ فيه على غرة ولا هو بالذي نلتمسه فلا نجده، فعندئذ نرى أننا قد تغلبنا على الجانب الذاتي من المعرفة وهو جانب جوهري فيها ، وان أفكارنا التي نكونها في أذهاننا لتؤدي إلى أفعال تقدر الأشياء

كما هي موجودة في ذاتها مستقلة عن الفكر.^(٣٧) أن هذا الاتجاه الجديد في الفلسفة المعاصرة جعل من بيرس يكون لنا نظرية في الاجتماع فضلا" عن نظرياته العلمية، فها هنا نحن في صدد موقف متميز في المعرفة يعتريه طابعا" سوسيولوجيا" فبعد أن استبعد بيرس الجانب الذاتي من المعرفة نراه يدعو إلى العمل الجماعي، واستحصال المعرفة من جمهوره الباحثين خير من المعرفة المتأتية من الفرد الواحد فيقول:- " تجربة الرجل ليست شيئا" إذا كانت بمعزل، أذا رأى إنسان ما يراه الآخرون سم ذلك هلوسة وتخليطا"، ليست تجربتي ولا تجربتك ولكنها تجربتنا التي ينبغي ان نفكر فيها".^(٣٨)

والنتائج التي يخرج منها بيرس في هذا القول هو العمل الجماعي الذي يؤدي إلى التغلب على الأخطاء التي تقع في التحقيق الفردي، وبهذه الطريقة تكون المعرفة عملا" جماعيا" ويكون التصحيح مهمة تعاونية. ولكن حيث ان الجماعة القائمة في أية لحظة معينة قد تخطئ فيما يتعلق بموضوع ما ، وهي على أية حال لن تعرف عنه كل شيء، فعلى كل باحث أن يتصور بحثه داخل نطاق البحث المستمر استمرارا" لا ينتهي والذي تقوم به جماعة الباحثين الدائمة النمو ، ومن ثم فان الجماعة تنشُد الصدق باعتباره معيارا" أقصى تضعه نصب الفكر، والباحثون عن الصدق يتجهون دوما نحو مرتبة من المعرفة الكاملة ولكنهم لم يبلغوا تلك المرتبة أبدا" على أن ذلك لا يتنافى بصورة مطلقة مع وجود معرفة يقينية، فنحن نستطيع مثلا" أن نق بآن نابليون قد عاش ولكننا نستطيع أن نستمر استمرارا" لا ينتهي في تحصيل معرفة عن حياته. وبعبارة أخرى فأن العمل الذي نؤديه في تكوين أفكارنا واستخلاص النتائج منها وتحقيق هذه النتائج، يجب ان يتم في روح من ضبط النفس والتعاون داخل جماعة الباحثين، وبإزاء المحيط الجماعي الذي يضع للصدق معيارا" أقصى ينشده الباحثون.^(٣٩) وكان من الطبيعي أن يتجه بيرس بنظريته في المعنى إلى تأمين معيار الصدق لها، خصوصا" بعد توافد التيارات الفلسفية لكل من ديفدهيوم ودارون وسبنسر إلى جامعة هارفرد التي كان يعمل بها بيرس لوقت قصير، فقد جاءت هذه التيارات بصورة قوامها الشك والإنكار - أي إنكار المعرفة - وإنكار ما درج عليه الذوق الفطري من عقائد، فكان على الفلاسفة الأمريكيين أن يقوموا بحركة اعتقادية تقاوم تلك الموجة.^(٤٠) حينئذ قال بيرس أن الاعتقاد قاعدة للسلوك، أو هو تكوين عادة مشعور بها ينتج عنها سلوك حر.^(٤١)

من هنا دعا بيرس إلى أهمية الاعتقاد في توجيه أفكارنا توجيهها" سليما"، الأمر الذي أوصله إلى جعل مشكلة الاعتقاد طرفا" رئيسا" في نظرية المعنى وخطوة بنائه في المعرفة، أدت إلى تطويرها فيما بعد على أيدي البراكمايين بشكل عام وخصوصا" وليم جيمس. ويقصد بيرس بالاعتقاد هو الاعتقاد بصحة فكرة ما، أو صدق عبارة من العبارات، والاعتقاد مرتبط بالمعنى القائم في الذهن، سواء كان

ذلك معنى فكرة، فنعتقد انها صحيحة، أو معنى عبارة فنعتقد أنها صادقة.^(٤٢) فالاعتقاد أذن اقرب إلى التصديق على صحة المعنى، ولذا فمشكلة الاعتقاد عند بيرس ترتبط أساسا" عنده بمشكلة المعنى، إذ تؤدي المشكلتان إلى نتيجة واحدة. فكما أن معنى الكلمة أو العبارة، أنما ينحصر فيما يترتب عليها من سلوك عملي، فكذلك المقصود بالاعتقاد هو " أولا" وجود عادة سلوكية معينة، وفي هذا يقول بيرس:- " أن أساس الاعتقاد هو إقامة أو تكوين عادة معينة."^(٤٣) ثانيا" بحيث يشعر الإنسان بوجودها. ثالثا" بحيث يستطيع أن يمارسها (فعلا" أو إمكانا") إزاء ما يقول عنه أو يعتقد أنه صواب.^(٤٤) ولقد عبر بيرس عن ذلك المعنى بقوله: "أن معنى الفكرة التي تعتمد في صحتها هو ما أنت على استعداد للقيام به من عمل إزائها."^(٤٥)

والفرق بين الاعتقاد ومجرد الادعاء أن ينتج عن الاعتقاد سلوك مطابق له حتما"، ولا ينتج عن الادعاء سلوك ما. وان الفرق بين اعتقاد وآخر حدوث سلوكين مختلفين. فإذا قلت أن لدي اعتقادين ورأيت أنه ينتج عنهما نوعان متشابهان من السلوك فاني احكم بأنهما اعتقاد واحد لا اثنان. أن تأسيس الاعتقاد يساوي تأسيس عادة للسلوك وأن العمل هو المحك الوحيد الذي يميز المعتقدات.^(٤٦) ويشير بيرس إلى أنه ليس من الضروري أن يتبع السلوك الاعتقاد فورا" وحالا"، إذ أنه لابد من أن تتكون الفرصة الملائمة ليتولد هذا الاعتقاد، وهذا ما كان يبدو على فلسفة بيرس بأنها فلسفة مرنة مفتوحة تنظر إلى المستقبل، تعطي للاحتمالية دورا" كبيرا" ورافضة لكل اتجاه أحادي جبري، الأمر الذي يقودنا إلى تناول آراءه في الميتافيزيقا من خلال المحور التالي.

المحور الثالث: الميتافيزيقا: رؤيا معاصرة!!؟

تكلمنا في المحورين السابقين عن طبيعة النشأة العلمية التي ترعرع عليها بيرس، وفضلا" عن هذه النشأة العلمية التي جعلت منه عالما" بارزا" في الكيمياء والطبيعة، نرى تحوله المشهود إلى الرياضيات والمنطق، رغبة منه في إقامة المنطق الرياضي، فكان منه أن أضاف جديدا" إلى المنطق القديم والحديث، وله أبحاثه الجديدة في القضايا وأنواعها والاستدلالات والبراهين وأصنافها، فضلا" عن اهتمامه اهتماما" بالغاً" بمنطق العلامات أو الرموز. أن هذا الميل الواضح إلى دراسة المنطق الرياضي ومباحثه كان دفاعا" قويا" لتشجيعه في أن يقيم نسقا" فلسفيا" ضخما"، فأقام على أساس هذا المنطق نظرية جديدة في الميتافيزيقا، أو أذا شئنا أن نقول رؤيا معاصرة لها. والبراكماتية منهج فلسفي، بدأ بيرس معها نظرية في المعرفة ليصل إلى نظرية في الميتافيزيقا كانت أصيلة بحق، وأثمرت نتائجها فيما بعد لدى البراكماتيين. لقد عرفت منهجيته بأنها مبدأ في المنطق،

أو أنها قاعدة منطقية، ونظرية في التحليل المنطقي، وعرف منهجه كذلك أنه يوضح به معاني التصورات الذهنية، وعنى بها تلك التصورات التي يمكن أن تدور على أساسها البراهين المتعلقة بالوقائع التجريبية.^(٤٧) ووفقا لهذه المنهجية أراد بيرس أن تكون قضايا الفلسفة خاضعة لمقاييس علمية منظمة، وتكون بمثابة العلوم التجريبية في حل مشكلاتها، وفي هذه الحال يمكننا أن نصل إلى معرفة حقيقية ونرقى بقضايا الفلسفة إلى مستوى علمي متطور. لكن من خلال هذا المبدأ الذي حدده بيرس، يتوجب علينا تطبيق المنهج التحليلي بالنسبة للمشكلات الفلسفية التي يفترض ان نقوم بتمييز المشكلات الحقيقية عن الزائفة منها. ويعود السبب في تعذر حل كثير من مشكلات الفلسفة لا إلى عدم إمكانية الإنسان لحلها، وإنما لكونها زائفة، بل هي ليست بالمشكلات أصلا.^(٤٨) أما المشكلات الحقيقية عند بيرس، فهي محتملة الحل أن لم يكن الآن، فقد يكون ذلك مستقبلا، والمهم في ذلك أن يكون الحل ممكنا، وذلك في مقابل المشكلات الزائفة عنده، وهي ما يستحيل حله لأنها تحتوى على ألفاظ أو عبارات خالية من المعنى (أي تلك التي لا ترسم سلوكا "معينا")، أو بمعنى آخر ما لا يكون موضوعها مما يدخل في حدود الخبرة البشرية فعلا" أو أمكانا". ولقد عبر بيرس عن هذا المعنى بقوله " أن كثير من الناس أمضوا الساعات الطوال، وكذا السنوات، بل وحتى أعمارهم بأكملها في محاولة حل مشكلات فلسفية لا حل لها، لأنها تخلو من المعنى، وبالتالي في الدفاع عما لا يمكن التفكير فيها."^(٤٩)

لذا أراد بيرس أن يقصى في بحثه الفلسفي جميع المشكلات التي تصاغ في عبارات زائفة أو خالية من المعنى، والعبارات الخالية من المعنى هي تلك التي تحتوى على ألفاظ زائفة مضللة، وهي تلك التي لا ترسم سلوكا "معينا". ويتضح موقف بيرس للمشكلات الزائفة أكثر خصوصا" في تصديه لمشكلات الميتافيزيقا التقليدية التي يقول فيها:- " أن البراكمانية تهدف إلى أظهار أن كل قضية من قضايا الميتافيزيقا الوجودية هي أما خالية من المعنى، أو أنها قضية مضللة، وبالتالي ينبغي استبعادها، بحيث لا يتبقى في الفلسفة ألا مجموعة من المشكلات التي يمكن البحث فيها باستخدام مناهج الملاحظة الخاصة بالعلوم الصادقة... وبهذا المعنى تكون البراكمانية نوعا" من الوضعية بمعناها الواسع الشامل."^(٥٠)

أن الابستمولوجيا البراكمانية التي صاغها بيرس، كانت تهتم بالدرجة الأولى لمجموعة النتائج الحسية والآثار المنعكسة من الأفكار والتصورات الذهنية، التي تعطى لنا معنى واضح حقيقي. لكن بيرس لم يذكر مجموعة النتائج المباشرة ولكنها مجموعة النتائج فحسب، وبمعنى آخر يعتقد وأيان

المعنى الدقيق لتصور ما كامن من أثاره المباشرة وغير المباشرة، ما نرى من أثاره الحاضرة وما يمكن أن نرى منه في المستقبل، وقد كان هذا ممهداً لبناء نظرية جديدة في الميتافيزيقا. ويذكر أن بيرس قد تأثر بنظرية كانط التي تجعل العمل أو الأخلاق فوق النظر أو المعرفة، فتكونت لديه كما يقول منذ عام ١٨٧٨ أصول رأيه في أن المعاني أو الحقائق الميتافيزيقية التي قضى كانط باستحالة معرفتها بالعقل النظري يمكن أن تحل مسألة أمكانها كمعرفة إذا واجهناها على أساس أثر نتائجها العملية في حياتنا لا على أساس مطابقتها لأشياء موجودة خارجاً عنا.^(٥١) فأنقاد الحقائق الميتافيزيقية يتطلب عند بيرس العدول عن النظرية التقليدية القائلة بمطابقة المعاني لمدلولات خارجية، والأخذ بوجهة نظر جديدة مؤداها أن كل معنى من المعاني في الذهن إنما يوزن بميزان ما يترتب عليه من نتائج عملية وحسب، فإذا كانت له نتائج عملية مؤدية إلى فروق في سلوكنا وحياتنا فأن مجموع تلك النتائج هو ما يكون المضمون الموضوعي لذلك المعنى، أي مدلوله الخارجي عندنا، وهذا المدلول الجديد ليس وجوداً أو شيئاً وإنما هو مجموعة تلك الآثار العملية التي تقودنا إلى المعنى وتوضحه في ذهننا. لذلك وصف بيرس مذهبه بأنه نظرية في توضيح وتعريف المعاني الميتافيزيقية.^(٥٢) ومثالاً على هذه المعاني الميتافيزيقية، نرى أن معنى الله لا نستطيع أن نتحقق منه بالرجوع إلى وجود خارجي ما، فهذا غير ممكن، وإنما فقط بالنظر إلى النتائج المختلفة لسلوكنا المبني على الاعتقاد بالإلهية وما تحدثه من فروق في حياتنا مما لا يتيسر مثله للملحد، فمجموع نتائج هذا السلوك المؤمن هو الذي يوضح ويعرف في ذهننا معنى الإلهية.

لقد قبل بيرس فكرة الله الذي هو ذات عاقلة وقادر قدره مطلقة، على أنها فرض فلسفي، ثم وضع عدة طرق مختلفة للبرهنة على حقيقة معناه. ذهب بيرس إلى أن التنوع الحي في الكون والتلقائية التي تجد أعلى تعبير عنها في الشخصية الإنسانية يساعدنا على أن نرى تلقائية لا متناهية، أو رتبة أولى لا متناهية، نراها في الأمثلة الجزئية المفيدة تعكس حقيقتها. كما أنه من الواضح أن نظام الغائية الدينامية موجود في العالم، وأن الطريقة التي أعد بها العقل الإنساني لكي يفسر مجرى الطبيعة ويتنبأ به من خلال فروض العلم إنما تكشف عن هذه الغائية فتتجلى أوضح ما تكون. والتفسير الوحيد الكامل لتكيف أجزاء العالم بعضها مع بعض وللتكيف القائم بين العقل والعالم هو أن ((عقلاً)) مطلقاً قد تولى عملية خلق الأشياء وتطورها، ويضيف بيرس أن فرض التطور يؤيد ذلك لأنه لم يكن هناك الوقت الكافي الذي يسمح بالتطور العشوائي غير الموجه من العماء إلى النظام الحاضر. وذكر بيرس إلى أننا عندما نفكر في فرض الله باعتباره ينبوع الكون الخلاق ترانا مسوقين بالتدريج إلى قبول هذا الفرض على أنه التفسير الوحيد الذي يمكن أن يفسر به الوجود، وأن الاعتقاد

الفطري في الله ليلآثم كل حركة في طبيعتنا، كما أن ميلنا إلى الصلاة وخشوعنا أمام المجموعة الموحدة للأشياء لتؤيد صدق هذا الفرض. (٥٣)

ليس الاعتقاد بوجود الله وأنه عقل مطلق لا متناهي، هو كل ما قدمه بيرس في نظريته الجديدة عن الميتافيزيقا، بل ذهب إلى تأسيس نظرية ميتافيزيقية سماها "الواقعية"، كانت بحق نظرية أصيلة، أراد من خلالها أن يقدم الفلسفة التأملية والنظريات الميتافيزيقية في المنهج العلمي والمنطق الرياضي وللواقعية معاني كثيرة يهمنها منها هنا الواقعية القديمة التي ذهب إليها أفلاطون وتابعه فيها العصر الوسيط حين قال ان للكليات وجودا "مستقلا" عن الأذهان وعن الأشياء الجزئية، ويتألف من مجموعها عالم آخر هو عالم الكليات وهو العالم الأساسي التي صدرت عنه الأشياء والحوادث والوقائع الجزئية. لذا نادي بيرس بواقعية جديدة، حيث قال " أن للكليات وجودا "مستقلا" عن الإنسان وعن الجزئيات، لكنها لا توجد في عالم مثالي آخر، ولكنها قائمة في عالمنا الذي نعيش فيه. (٥٤)

والكليات هنا هي القوانين التي يسير العالم الطبيعي وفقا" لها. أذن للقوانين وجود مستقل عن الجزئيات الخاضعة لها، وليست مجرد صيغ تعبر عن الحوادث، أو عبارات لفظية ترمز إلى ما يكون في العالم وإنما للقوانين وجود مستقل، فمثلا" أن لم يوجد قانون موضوعي يتحكم في حركات الذرة ويجبرها على أن تتبع نظاما "معينا" في الحاضر والمستقبل فلن نقول أن للذرة قانونا "معينا" تسير عليه. أن ما نصادر عليه من وجود الترتيب والنظام في العالم ما هو ألا نتيجة اضطرابه إلى الخضوع لسلطة موضوعية هي القوانين. (٥٥)

ويجب أن تمتد هذه السلطة الموضوعية لتشمل قضايا الميتافيزيقا التي بإمكاننا - حسب رأي بيرس - التعامل معها وفق القوانين الموضوعية هذه. ففي هذا المجال يقع التجريب الميتافيزيقي ضمن فهم بيرس للرياضيات الذي يعتقد أنه خاضع لنوع من الملاحظة الخاصة. فإذا أردنا أن نفهم الميتافيزيقا على النحو الجديد، فلا بد أن نقارنها بمعرفتنا بالرياضيات والعلوم التأملية الأخرى، لذلك يعتقد بيرس أن البديهيات الميتافيزيقية هي مثل الرياضية أو الحسابية تبدو غير مبرهنة ولكنها لا يمكن أن يبقى مشكوكا" فيها. (٥٦)

وبعد هذا الوصف المنهجي لموضوعية القوانين، يرى بيرس أن العالم لا يسير وفق قوانين حتمية ضرورية دائما" وإنما فيه عنصر الإمكان. فالقوانين في تطور وتخضع لقانون التطور ذاته، وليس المستقبل معروفا" لنا معرفة ضرورية وإنما قد يسير وفق الماضي، وقد يتغير عنه قليلا" وكثيرا" ويتضمن ذلك أن بيرس مؤمن بعنصر الصدفة في الكون أي أن من الممكنات ما قد يظهر في المستقبل، ما لم نلاحظه في الماضي. (٥٧)

فاستمرار الأشياء معناه أن هناك دائما" مجالا" لمزيد من التحليل، وبهذه الصيغة يرى بيرس أن الكون - إلى الأبد - قابل للشرح وممكن التفسير. (٥٨) ولقد

استند بيرس في صياغة قانونه الكوني هذا على الفلسفة اليونانية، وبالتحديد نظرية ديمقريطس الذرية. حيث اعتبر بيرس أن ديمقريطس من أول القائلين بأن كل واقعة في الكون تحدد تحديداً "دقيقاً" بالقانون.^(٥٩) كما يمضي بيرس معه - أي ديمقريطس - في تعميم نتيجته على الكون بأسره فقال "بأن الكون يسوده هذا القانون الوحيد".^(٦٠)

وخلاصة ما يتوصل إليه بيرس هو الاستمرارية المفتوحة في البحث بكلاً اتجاهيها (الماضي والمستقبل)، وهو أن نكمل ما بدأه غيرنا، وهذه هي السمات الرئيسة التي يتسم بها الباحث الذي يستخدم المنهج العلمي. فكما ذكرنا سابقاً أن بيرس لا يؤمن بأن الآثار والنتائج المباشرة لشيء ما هي كل معناه، وإنما يتألف المعنى وقصد بمجموعة النتائج هو أتباع الطريق اللانهائي في البحث، فما نصل إليه اليوم من نتائج تصور ما ليس ذلك كل معناه، وإنما نضيف إليه دائماً ما يأتيه به المستقبل من نتائج أخرى.^(٦١)

وبهذه الصورة جاءت آراء بيرس في الميتافيزيقا المعاصرة لتتوج آراءه الفلسفية في المعرفة والمنطق والرياضيات وغيرها، فكانت بحق هذه الفلسفة القاعدة الأساس لتطوير الفلسفة البراكمانية وانتشارها في أمريكا والعالم.

الخاتمة:

وبعد فراغنا من هذه المحاور الثلاثة نصل إلى أهم النتائج الآتية:

(١) تأثر بيرس بالعلم الحديث، أي العلوم المختبرية، وتحويل خبرته في المنهج التجريبي هذا إلى فيلسوف علم، فجعلته يؤسس نظرية معرفة ومنطق وميتافيزيقا على غرار البحث العلمي والتجريبي المختبري.

(٢) تعامله مع الفكرة على أنها مماثلة للفروض العلمية التي نقيمها ويكون من الممكن تحقيقها، وهو بهذا يوصلنا إلى حقيقة أن قضايا الفلسفة ومشكلاتها خاضعة للمنهج التحليلي وقابلة للتطوير.

(٣) توسيع نطاق البحث المعرفي إلى مجموعة عاملة، والتخلص من الفردية والذاتية التي لم تنصف نتائج المعرفة لاقتصارها على الرأي الواحد مما أدى إلى انحسار حقيقة الموضوع والتغلب عليه.

(٤) ارتقائه بنظرية المعنى إلى مستوى أفاد منها في خلق مبدأ أخلاقي أصيل مبني على ديمومة واستمرار في المعرفة ليناخذ غاية مثلى عليا تتطلق من الماضي وتتطلع إلى المستقبل.

(٥) دراسة الكون من خلال العلاقات والروابط الحقيقية المستندة على منطق يقودنا إلى تجديد رؤيتنا المعبرة على جوانب العالم تعبيرا " نستمده من خبرتنا الحسية المباشرة.

الهوامش والملاحظات:

- (١) محمود، زكي نجيب. نافذة على فلسفة العصر، ص ١٣١
- (2) Descartes. Principles of Philosophy.
- أيضاً". أنظر ديكرت. التأملات. ترجمة عثمان أمين.
- (٣) محمود، زكي نجيب. مصدر سابق. ص ١٣٢
- (٤) المصدر نفسه.
- (٥) أسلام، عزمي. اتجاهات في الفلسفة المعاصرة. ص ٩٢
- (6) Peirce, C. S., Collected Papers, Vol.I, P.368.
- (٧) محمود، زكي نجيب. فلسفة وفن. ص ١٧٠.
- (8) Peirce, C. S., Ibid. Vol.V, P.812.
- (9) Ibid.
- (١٠) محمود، زكي نجيب. نافذة على فلسفة العصر. ص ١٢٨.
- (١١) أسلام، عزمي. مصدر سابق. ص ٩٥.
- (١٢) محمود، زكي نجيب. حياة الفكر في العالم الجديد، ص ١٠٥. نقلاً عن: عزمي أسلام، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة.
- (١٣) الموسوعة الفلسفية المختصرة. فؤاد كامل وآخرون. ص ١٠٢.
- (14) Kant, I. Critique of Pure Reason.
- (١٥) الموسوعة الفلسفية المختصرة. مصدر سابق.
- (16) Buchler, J., The Philosophy of Peirce, P. 290.
- نقلاً عن: عزمي أسلام، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة. ص ٩٥.
- (١٧) الموسوعة الفلسفية المختصرة. مصدر سابق. ص ١٠٣.
- (١٨) المصدر نفسه.
- (١٩) الشنيطي، محمد فتحي. وليم جيمس. هامش. ص ٧٢.
- (٢٠) كرم، يوسف. تاريخ الفلسفة الحديثة. ص ٤٠٢.
- (21) Peirce, C. S., Chance, Love and Logic. P.37.
- (22) Wright, E. Chauncey. Pragm., P. 263.
- (٢٣) الموسوعة الفلسفية المختصرة. مصدر سابق. ص ١٠٣.
- (٢٤) بيرس، رالف بارتون. وليم جيمس. ص ١٨٦.
- (٢٥) أسلام، عزمي. مصدر سابق. ص ٩٦.

(26) Buchler, J., Ibid. P. 24.

(27) Peirce, C. S., Chance, Love and Logic. P.45.

(٢٨) زيدان، محمود. مصدر سابق. ص ٤٢.

(٢٩) أسلام، عزمي. مصدر سابق. ص ٩٧.

(٣٠) زيدان، محمود. مصدر سابق. ص ٤٣.

(٣١) الطويل، توفيق. أسس الفلسفة. ص ٦٢.

(٣٢) بيرس، رالف بارتون. مصدر سابق. ص ٣٨٨.

(٣٣) الموسوعة الفلسفية المختصرة. مصدر سابق. ص ١٠٣.

(٣٤) إبراهيم، زكريا. دراسات في الفلسفة المعاصرة. ص ٣٠.

(٣٥) الشنيطي، محمد فتحي. المعرفة. ص ٢٠٧.

(٣٦) بيرس، رالف بارتون. مصدر سابق. ص ٣٨٧.

* ذهب بيرس إلى أن أفكارنا في الواقع هي شبيهة بالفروض العلمية، الأمر الذي زاده

إصرارا" على جعل قضايا الفلسفة قضايا علمية، يمكن التعامل معها على غرار التجارب في

المختبرات العلمية.

(٣٧) الموسوعة الفلسفية المختصرة. مصدر سابق. ص ١٠٣.

(٣٨) زيدان، محمود. مصدر سابق. ص ٤٢.

(٣٩) الموسوعة الفلسفية المختصرة. مصدر سابق. ص ١٠٤.

(٤٠) زيدان، محمود. مصدر سابق. ص ٣٨.

(٤١) المصدر نفسه السابق. ص ٣٩.

(٤٢) أسلام، عزمي. مصدر سابق. ص ١٠٠.

(43) Buchler, J., Ibid. P.29.

(44) أسلام، عزمي. مصدر سابق. ص ١٠٠.

(45) Peirce, C. S., Collected Papers, Vol. 5 Par. No.35.

(٤٦) زيدان، محمود. مصدر سابق. ص ٤٠.

(٤٧) زيدان، محمود. مصدر سابق. ص ٤١.

(٤٨) أسلام، عزمي. مصدر سابق. ص ٩٧.

(49) Blanshard, B., Reason and Aualysis. P.192.

نقلا" عن: عزمي أسلام، اتجاهات في الفلسفة المعاصرة. ص ٩٨.

(50) Buchler, J., Ibid. P.259.

- (٥١) الفندي، محمد ثابت. مع الفيلسوف. ص ١٨٨.
- (٥٢) المصدر نفسه. ص ١٨٩.
- (٥٣) الموسوعة الفلسفية المختصرة. مصدر سابق. ص ١٠٥.
- (٥٤) زيدان، محمود. مصدر سابق. ص ٤٣.
- (٥٥) المصدر نفسه.
- (٥٦) المهرج، علي عبد الهادي. المنهج العلمي في فلسفة بيرس. ص ١٠٧، من مجلة الفلسفة الصادرة عن قسم الفلسفة، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية. العدد ٣. سنة ٢٠٠٥.
- (٥٧) زيدان، محمود. مصدر سابق. ص ٤٤.
- (٥٨) بيرس، رالف بارتون. مصدر سابق. ص ٣٩٠.
- (٥٩) العالم، محمود أمين. فلسفة المصادفة. ص ١٥٤.
- (60) Peirce, C. S., Collected Papers, Part. 36, P.28.
- نقلاً عن / محمود أمين العالم. فلسفة المصادفة. ص ١٥٤.
- (٦١) زيدان، محمود. مصدر سابق. ص ٤٤.

المصادر والمراجع

- (١) إبراهيم، زكريا، دراسات في الفلسفة المعاصرة. دار مصر للطباعة. القاهرة ج ر. سنة ١٩٦٨.
- (٢) أسلام، عزمي. اتجاهات في الفلسفة المعاصرة. الكويت. ط. ١٩٨٠.
- (٣) الشنيطي، محمد فتحي. المعرفة. القاهرة. ١٩٨١.
- (٤) الشنيطي، محمد فتحي. وليم جيمس. القاهرة ١٩٥٧.
- (٥) الطويل، توفيق. أسس الفلسفة. القاهرة. ١٩٧٦.
- (٦) العالم، محمود أمين. فلسفة المصادفة. دار المعارف بمصر. القاهرة. ١٩٧٠.
- (٧) الفندي، محمد ثابت. مع الفيلسوف. بيروت. ١٩٨٠.
- (٨) المهرج، علي عبد الهادي. المنهج العلمي في فلسفة بيرس. بحث من مجلة الفلسفة، الصادرة عن قسم الفلسفة/ كلية الآداب/ الجامعة المستنصرية. العدد ٣. سنة ٢٠٠٥.
- (٩) بيرس، رالف بارتون. وليم جيمس. ترجمة الدكتور محمد علي العريان. دار النهضة العربية. القاهرة. ١٩٦٥.
- (١٠) زيدان، محمود. وليم جيمس. مصر. ١٩٥٨.
- (١١) كرم، يوسف. تاريخ الفلسفة الحديثة. مصر. ١٩٥٧.

(١٢) محمود، زكي نجيب. نافذة على فلسفة العصر. الكويت. ١٩٩٠.

(١٣) محمود، زكي نجيب. فلسفة وفن. القاهرة. ١٩٦٣.

(١٤) الموسوعة الفلسفية المختصرة. فؤاد كامل وآخرون. مكتبة الانجلو المصرية. ١٩٦٣.

المصادر والمراجع الأجنبية:

(1) Peirce, C. S., How To Make Our Ideas Clear. 1878, Philosophy Archive@Marxsts.Org.

(2) Peirce, C. S., Collected Papers. 1931, Philosophy Archive@MarxTs.org.

The idea in pragmatic philosophy

"Pierce as a model"

M. Nizar Najib Hamid

Department of Philosophy / College of Arts

Abstract:

The motives and reasons that have worked to achieve fame for Barakatian philosophy - not only in America but the world - are that it is a philosophical movement that contributed to building a comprehensive scientific method and that it has studied the reality of philosophy and its problems from a new perspective that adopted an atypical empiricism.

Peres is one of the most prominent Berkamian philosophers, who is credited with laying the first building blocks for building a pragmatism - a philosophy and a scientific method - as he wanted it, and a basic basis for philosophers and scholars to base on it, who believed in his views and theories that he employed in it after what was reflected in knowledge, logic and metaphysics, so it was It has its weight in contemporary Western thought.